لحظة البدء

في أمسية تناثرت فيها النفس شظايا مما يحدث في عالم كنا نحلم به بستاناً يعطي لنا التمر من نخيله، مثلما أعطى لنا الزيت، الذي وا أسفاه جعله المجرمون وقوداً تشوى به أكباد الأطفال وأمهاتهم، كنت أنتظر برنامجاً حوارياً، يؤكد أصحابه بأنه يذاع على الهواء وتطرح فيه الآراء الحرة، هذا البرنامج كان قد اتصل بي المنسق له طالباً مني المشاركة فيه والحلقة خاصة بالأطفال ووضعهم النفسي في الحروب، والأطفال عشقي الكبير كامرأة وأم تحب الأطفال وتفهم الحضن الدافئ كيف يكون، هنا قلت لنفسي لنشارك فيه، وعسى أن تكون المشاركة مجدية ولعل التوفيق يكون حليفي فأغرس زهرة عبر الأثير، وربما تغدو أنفاسها جزءاً من أنفاس الريح التي تلقح بقية أزهار الحقل، وبدأ "الحقل" أو البرنامج الذي يختلف فيه من يختلف ولا يتفق فيه من يريد الاتفاق، فالرفاق تفرقوا، ولا شيء هناك يتفق عليه!!

كان الحوار يدور عن كيف نحمي أطفالنا من التلوث الفكري الذي يصبه الإعلام عليهم!!

ومرت الدقائق طويلة، مملة بالرغم من الموضوع الذي كان من المفترض قد أوحى لمستمعيه بأنه سوف يكون ساخناً حتى الإذابة ولم يكن!!

في البدء انطلق رجل يتحدث بطريقة إلقاء الأوامر التي لا يُنتظر تنفيذها: يجب أن يُبعد طفلنا عن مناظر الحرب والشقاء التي تصب على أرضنا وهو غير مؤهل لذلك!!

متحدث آخر قال: يجب أن يُبعد الطفل عن كل ما ليس من تعاليمنا ولم يشرح أي تعاليم يعني؟!

وآخر، قال: إن ما يجب أن نؤكد عليه هو أن لطفلنا خصوصيته!

رابع، قال: إن طفلنا شغل بالألعاب الإلكترونية التي (جلبت له) ولم نعلمه الفروسية وكيف يتحدث، وكيف يحاور، لقد شغلت أمه عنه، هكذا أكد الرجل الذي كان يتكلم بهدوء وطمأنينة غير مبالٍ بدور الأب الذي برّأه من كل دور!!

وأتى دور رجل من جنوب الأرض، سبق آخر من شرق البلاد أو غربها ربما، فالهم سواء، قال ذلك الرجل: تلك الحرب، ويعني الحرب الأمريكية البريطانية على العراق، علمتنا السياسة:

تصور، طفلنا الذي يحبو في تعليمه الأولي، تعلم من تلك الحرب كيف يتكلم عن سياسة الدول وكيف يحلل منحنياتها وكيف يدخل في متاهاتها وتصور -أيها العزيز- حتى المرأة تعلمت السياسة!!.

هنا في هذه اللحظة، التي أضاف فيها الرجل من جنوب الأرض (المرأة) بشكل استثنائي، للذين تعلموا في تلك الحرب (السياسة).

دُرتُ أنا (المرأة) التي ظنت (ظننت أعني) أن عصر الجهالة قد ولى وحل محله الوعي!.

درت حول طاولتي الصغيرة رحلت في دورة لولبية تحملني عاصفة لون أتريتها حروف أبجدية، حول العالم، لا ألوي إلا على روح البحث، درت أبحث عن الحقيقة المتناهية البساطة، رحلت في دورة لم أعُد منها إلا وبقاياي تتفرق في كل زمن مضى وفي كل مكان مرت به ذات يوم، أنثى لا تنسى.

إنها إنسان حملت لون الأنثى وجمال الإنسان، لم أترك مكاناً مررت به إلا وبقيت مني هناك بقية، تركت بقايا علامات استفهام بحجم جبال الجنوب!؟

من يعيد لي بقاياي التي فرقوها شظايا؟

من يعيد لي لحظة إنسانيتي التي سرقوها؟

من يعيدها إلى لحظة البدء الجميلة التي سارت فيها حواء مع آدم صديقين وشريكين لا يفترقان في رحلة الحياة التي لابد أن تضمهما معاً؟ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13).

إني امرأة من آدم ومعه سرت ومعه أسير، لا قبله ولا خلفه.. سرت معه، أريد وطن الحب، وأركض معه، في اتجاه العطاء الممدود واللامحدود، اتجه معه في الحزن والشقاء، أتجه معه في

الارتفاعات وفي الانحناءات، لا ننحني لأحد غير رب العالمين الذي خلقنا وأرسلنا لنقيم العدل الذي أمر به.

من يخبر هذا الرجل أن آدم عليه السلام لم يستطع أن يسير وحيداً كان يحتاج شريكاً لذلك منحه الله الأنثى؟

من يخبره أن أباه آدم لم يسر إلا وأمي حواء إلى جانبه تشد من أزره ويسكنُ إليها؟ ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ (الروم: 21).

من يخبره أن ثمة مخلوقاً من ذات الطين الذي خلق منه هو، وعلى شاكلته هو، بل وأجمل، يشاركه عمارة الأرض التي خلقهما الله إلى عمارتها؟

من يخبر هذا الرجل أنها صنعت حضوراً متألقاً على مر العصور، بالرغم من محاولات التغييب التي اجترأت على رقبة الحقيقة ثم علقتها على المشانق؟

في دورتي اللولبية حول طاولتي الصغيرة، درت الكرة الأرضية في أزمنتها البعيدة المتوالية، ركضت حول القارات حافية القدمين لا يحميني إلا ثوبي الرقيق الذي حاولوا انتزاعه مني أو نزع أجزاء كثيرة منه، بحجة تجميلي في أعينهم وتطويري!!

ركضت حافية القدمين فوق الصخور وبين السهول، وحين أردت أن أرتدي الحذاء صنعوا لي حذاء يختلف، وضعوا تحته

شوكة كي لا أستطيع أن أنجو بنفسي إذا حان الركض، يقولون هكذا يكون الحذاء أجمل!!

آه يا أمي يا حواء آه من رحلتي الطويلة كم أنهكتني..

كلما حاولت أن أستريح وجدت أن هناك من يقف لي بالمرصاد.

إنهم يحملون أقلاماً غلاظاً يحفرون بها حُفراً واسعةً ليسقطوني بها.

أنا الأنثى الجميلة التي يقولون إن ثيابي تثقل كاهلي!!

لم أجد نفسي إلا ملاحقة أو منبوذة، كانوا لا يملون المطاردة إلى أن تأتي الحاجة إليّ، وكثيراً ما تأتي هذه الحاجة، ولكنهم لا يعترفون، يبهرهم وضعي هنا، ويبهرني وضعي هناك، يقول الكاتب الصحفي الأمريكي"مارك توين" وقد عاد من رحلة له إلى مصر في أواخر القرن التاسع عشر: "إنه يوجد في مصر ثلاثة حيوانات كافية فقط لحاجات أهلها، وهذه الحيوانات هي الجمل والثور والحمار، ولكن إذا جاز التوسع في ذلك فقد يصح أن يضاف إليها حيوان رابع هو "المرأة"؛ لأنها تشبه الجمل والثور والحمار كل التشابه من حيث إن الشقاء كله واقع عليها، والصبر كله مطلوب منها. وأضاف لكنها قد تختلف عن تلك الحيوانات بأنها تنفع.. وأما تلك فلا"[1].

(1) مصدر زيدان عبد الباقي، المرأة بين الدين والمجتمع صفحة: 431.

من مقالة له ترجمتها الكسندرا أفرينو في مجلتها أنيس الجليس التي كانت تصدرها في مصر بين 1898 - 1908م.

الحيوانات الأربعة وهل أخطأ مارك توين؟

تقول الكسندرا أفرينو: "إن المرأة في مصر تكاد تكون أشقى مخلوق فيها، لكثرة جهدها وفرط صبرها واحتمالها، ولذلك تجدها: حارثة الأرض، حمالة للأثقال، سائقة للبهائم، ومشاركة لها في كل أعمالها، ثم هي فوق ذلك، أم"[1]، السؤال هل أخطأ مارك توين؟

أتفق مع الكسندرا أفرينو أن المرأة تتحمل أكثر مما تتحمله الحيوانات الثلاثة إضافة إلى أنها تعقل وترى كيف تسلب حقوقها الفكرية، إن الحقيقة تصرخ بنعم لمارك توين، فالمرأة يطلب منها الكثير الكثير، فهي التي تشقى كي يكون هذا الرجل على أفضل وجه، وفي كثير من الأمكنة تكاد تكون أكثر مخلوق يطلب منه العمل والإنجاز؛ لذلك تجدها تعمل في الحقل، وفي البيت وفي المكتب وفي الليل وفي النهار، الزوج يريد، والطفل يريد، والمجتمع الذكوري الخائف يحاسبها على تقصيرها!!

هذا المجتمع، وذاك، وأعني به المجتمع الذكوري المهيمن، لم يحاسب نفسه عن الحقوق المغيبة من حقوق الإنسان "الأنثى" لقد غيب الكثير من حقوقها ونسي أو تناسى هذا المجتمع الحقيقة، أن

(1) زيدان عبد الباقي، المرأة بين الدين والمجتمع صفحة: 4305.

الله جعل لها حقوقاً كريمة، وهو الذي لم يفرق بين عمل الأنثى وعمل الرجل، فمعيار التفضيل عنده، العمل الصالح، لا الجنس ولا اللون، المعيار كان واضحاً وذلك كان واضحاً في تنزيله الحكيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13).

لقد ذهبت الحضارات القديمة بأساطيرها وأباطيلها وأتى الإسلام بتكريم وفتح جديد للمرأة، تنفست المرأة أنفاس العدل والانتصار على أوضاع وأوجاع طالت وأسالت الدموع غزيرة، ولكنهم قليلاً، قليلاً أفرغوا هذا النصر من كثير من مضامينه، فكثير من الحقوق الشرعية أخفيت بين طيات الكتب التفسيرية للمتفقهين الذين يفقهون الحقوق الشرعية للرجل على زوجته ولكن الوقت يضيق في التدقيق والبحث عن حقوق الزوجة على زوجها؛ وأبرزت ذرائع المتفقهين في سد الذرائع، التي قالت إن الصداع قد يتسرب يوماً إذا ما قررت المرأة أن تطالب بما منحه الله لها، من تكليف وتشريف!!

لقد ساوى الله بينهما في القيم الإنسانية وجعل معيار التفضيل هو العمل الصالح كما تقدم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13)." وهناك الكثير من الأدلة التي تمر أمام أعيننا مرور الكرام وإن دون تبجيل أو تحفيل، ساوى بينهما في الإيمان ﴿مَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: 124).

هل أستمر في ذكر الحقوق التي تمر كما قلنا مرور الكرام؟

في غالب الأمر لن أستمر؛ لأن هناك الكثير الذي لا أستطيع حصره والكثير الذي قد يعلمه الرجل في الجنوب وفي الشرق وفي الغرب ويمر أو يمرر!!

فقط سوف أتوقف عند شيء له دلالة مرجعية واضحة، ولكن هذه الدلالة تغيب في كثير من الأحداث التي تحدث الآن؛ لأنها فيما يبدو مقلقة للرجولة التي لا ينقصها القلق الذي لم تسببه المرأةفي الحقيقة المطلقة، وهذا واضح جداً لمن يرعى الحقوق ويريد أن يعلم!!

إنه حق الأنثى في أن تفتي، وتُجير، وحقها في أن تدير الأموال والأشغال، لقد كانت عائشة بنت أبي بكر (تفتي)، وقد كان كبار الصحابة إذا أشكل عليهم أمر من أمور الدين يستفتونها فيه فيجدون عندها علماً به، قال أبو موسى الأشعري: "ما أشكل علينا، أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً".

وخديجة رضي الله عنها (سيدة أعمال) كانت هذه السيدة الفاضلة تباشر عملها بنفسها، لا أحد يعيب عليها عملها أو يمنعها عنه، ولكنها رأت الاستعانة برجل يساعدها في أعمالها، ولقد كان ذلك الرجل، رجلاً اختارته بنفسها، إنه الرسول الكريم، أكرم الخلق وأفضلهم، أرأيتم بعدُ أي أمرأة هي وأي اختيار مارسته وأي توفيق

أحرزته؟! لقد اختارت أفضل البشر قبل أن يعرف البشر!! اختارت أفضل الرجال على وجه الأرض، الرجل القوي الكريم الفاضل.

وأم هانئ (تُجير): جاءت أم هانئ، السيدة فاختة بنت أبي طالب يوم فتح مكة إلى رسول الله فقالت: "يا رسول الله، زعم ابن أمي (تعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه) أني قد أجرت الحارث ابن هشام وإن علياً يريد قتله، فقال رسول الله ﷺ: "قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ"[1]. لله درك يا رسول الله، لقد علمتهم بعملك هذا، أن للمرأة كلمتها وإسهامها الحضاري، ليتهم كانوا يتبعون كل ما علمتهم.

إذن علمنا أن الفروق البيولوجية المرتبطة بوظيفة الحمل والولادة لم تكن عائقاً كبيراً في وجه المرأة التي أرادت العمل دون أن تستسلم للفروق النفسية والفيسيولوجية التي يضربها المجتمع حولها.

لقد أقصيت المرأة هنا بشكل متعمد من الحياة الاجتماعية تدريجياً ودون قرارات صريحة، ولكنها -أي القرارات- موجودة ويعمل بها، ولها حزب كبير في كل قرية ومدينة، هنا في الشرق المسلم التي أعطيت فيه لها الحقوق، تكوَّنت أحزاب ضد المرأة، مثلما تكونت الفرق التي مزقت وشتت العالم الإسلامي، بفعل قصور العلم وبفعل قصور الذكاء المجتمعي، لقد نجح هذا الحزب

(1) صفحة: 15 أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام الجزء الرابع عمر رضا كحالة.

في إبعاد المرأة عن كثير من الأنشطة التي كان بإمكانها ملؤها لصالح المجتمع الذي لا يمكن أن يرتقي ويكتمل بناؤه دونها، لقد أحبطت المرأة لأن هناك تسلطاً ذكورياً يرفض تميزها، ولقد تميزت المرأة عندما أتيح الحيز الذي مكنها من التحرك، ولكن عندما أغلقت الطرق وبنيت سياجات مجتمع (الحرملك) الذي أتى مع انحطاط الثقافة المجتمعية والثقة في الذات الذكورية، فقدت المرأة توهجها واصفرت أوراقها الخارجية.

هنا في شرقنا الذي أضاء بنور الإسلام وعدله، هنا أبى بعض أبنائه إلا أن يتناسوا أن هناك حقوقاً نصت عليها الشريعة، وأبى بعضهم إلا أن يحكِّم عاطفته غير محكم للنصوص، أبى هؤلاء إلا أن يلحق بحضارات نبعت من أساطير لم ينزل الله بها من سلطان، أبوا إلا أن يلحقوا بالبهو الخلفي لمجلس بني على الأساطير، لقد تتبع بعضنا خطوات ليست في مسار الشريعة ولا مسار العقل السوي، لقد أصبنا بالغرب وبالشرق، توعكت أفكارنا لأننا خلطنا الرباني بالأسطوري، جاءنا الإسلام يقول لنا إن المجال يفتح ذراعيه لكل أبنائه ذكوراً وإناثاً، وبدلاً من أن نستقبل القبلة جميعاً في وحدة ربانية مطهرة من الهوى التفتنا إلى الخلف نركض وراء الأساطير في بهوها الخلفي.

في البهو الخلفي للحضارة:

في الحضارات القديمة والوسيطة وحتى يومنا هذا تظل الأنثى في موقف المتهم حتى لا تثبت براءتها؛ فالعقم مرض يصيبها

هي فقط، والتعب هي من مسبباته في كل الأحوال قبل الزواج وبعده وفي ختامه، فالمرأة تخشى أن يشاع عنها أن تكون عقيماً، وتخشى أن يشاع عنها أن تكون غير مرغوبة، ولقد كان هناك وقت يُنظر فيه إلى الفتاة التي تظل بكراً نظرة ازدراء؛ لأن معناها عدم إقبال الرجال عليها!!

فقد كان العريس إذا ما وجد عروسه بكراً يثور وتصل الثورة إلى أمها مكللة بالشتائم المقذعة فكيف تقدمها إليه هكذا؟!![1].

إنه أهمال الأم إذ يجدها هكذا، أي أن أحداً لم يرغب بها قبله!![2].

هي إذن هي دائماً مدانة في كل العصور، فأرسطو مؤسس مدرسة اللوقيين الفلسفية ومربي الإسكندر المقدوني هذا الفيلسوف الذي أتى من بلاد سادت حضارتها وفلسفتها حتى أتى الإسلام الذي أبطل خرافاتها وبنى العظم الذي ترتكز عليه الآن، حضارة أقمار التجسس لما تحت الماء وما فوق الثرى، يظن أن الطبيعة لم تكن لتتشوه لولا وجود المرأة، ولكن لأن وجودها ضروري

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الأول صفحة: 80.

(2) يرى أرسطو أن علم السياسة هو علم السعادة الجماعية، كما أن علم الأخلاق هو علم السعادة الفردية، وأن وظيفة الدولة هي أن تقيم مجتمعاً يحقق أعظم سعادة لأكبر عدد. أرسطو هو من علَّم الإسكندر، وهو الذي أنشأ مدرسة اللوقيين وقد سمى طلابها بالمشائين وفلسفتهم بالمشائية نسبة إلى المماشي المسقوفة التي كان أرسطو يحب أن يسير فيها مع طلابه وهو يحاضرهم، فلسفة اللوقيين تعني بالتاريخ الطبيعي. ول ديورانت، المجلد الرابع صفحة: 494.

لإنجاب الرجل فإنه: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، طبعاً لم يقلها هو، فواقع الحال هو من يقول.

فما العمل والله سبحانه وتعالى أراد أن تعيش المرأة مع الرجل على هذه الأرض؟!!

يقول أرسطو: إن الزواج "مؤسسة تزودنا بأصح أجساد ممكنة، إنها دور حضانة لدولتنا"!!

هكذا يرى أرسطو دور المرأة؛ لهذا نراه ينصح الأم بأن" تقوم بالتدريبات وتناول الطعام الجيد في أثناء الحمل ما دام الجنين يستمد غذاءه من جسمها، أما ذهنها فلابد أن يظل معطلاً حتى تحتفظ بأكبر قدر من قوتها لنمو الجنين، فمادام الطفل لا يستمد من ذهن أمه فإننا لسنا بحاجة إلى تطوير ذهنها"!!.

هذا ما جاء في كتاب "السياسة الكتاب السابع لأرسطو". إذن في سياسته: العقل لابد أن يظل معطلاً، هكذا يريد؛ لأن سعادته سيكون مستفيداً!!

• في حضارة الهند القديمة[1]:

في رحلتي رأيت أشياء كثيرة يصدقها العقل أحياناً وأحياناً أكثر يقف عندها في ذهول ثم يطلق صرخة لونها، آه.

---

(1) قانون دفن الزوجة استمر حتى تدخلت السلطة البريطانية المستعمرة في القرن التاسع عشر وحظرت قانون «الساتي» الذي بموجبه يتم حرق الزوجة مع جثمان زوجها!! =

والآه المغرقة في الألم والدهشة أيضاً سمعتها في عصور عديدة وأمكنة مديدة، في الهند، هذه القارة القريبة والمديدة والعديدة رأيت أني أصبحت فتاة جميلة، كبرتُ وطال شعري، أصبح شعري حريراً، بهي السواد، أشرقت أنا في كل النواحي..

هناك رأيت أنهم لفوني بالحرير، حملوني كأنثى إلى من سيمتلكني بضاعة مزجاة، تتجب له الولد، ويا حزن حزني حين أنجبت له بنتاً..!!

زوجي الذكر، بكى، أعلن سوء حظه معي، زوجي الذكر أعلنَ حزنه أمامي ولم يدارِ، أشعروني أنني قد ارتكبت ذنباً..!!

أواه ماذا أفعل لهذا الرجل؟

لا بأس يقولون: ارعي له شؤونه، دلّليه..

حافظي على حياته أكثر من حياتك فإنه حين يموت ستكونين معه في قبره، تؤنسين وحدته حتى ينفذ الأكسجين وتخمد أنفاس الحياة لديك.!![1].

= وقد تعرضت في الحقيقة الحملة على هذه الطقوس الظالمة إلى التنديد بها؛ لأنها تأتي استجابة لقرار استعماري!! ولا أدي في الحقيقة في هذه الحالة من يستعمر من؟.

فأسرة الرجل العريس من الهند تطلب المهر من أسرة المرأة، والمال ينتقل من يد والد العروس إلى يد والد العريس، المال إذن للرجل في كل الأحوال والمرأة لا تربح في هذه الحال إلا الحزن أو الحرق إذ تحرق المطالب بالأعذار الواهية، وكم باسم الاستعمار حرقت مطالب وارتكبت مثالب تخجل منها عين الشمس؟!!.

(1) في عام 1917م في قرية صغيرة في ولاية راجستان أحرقت عروس تبلغ =

الأنثى المحمية:

وليس في الهند وحدها تظلم المرأة؛ فالقوانين البريطانية ليست في معزل عن استعمارها؛ فإلى مطلع العام 1839م حين برزت قضية كارولين نورتون التي تعرضت إلى ظلم زوجها الذي قام باختطاف أطفالهما متهماً إياها "بمحادثة إجرامية ضد اللورد ملبورن"!!

لقد اعتبرت أموالها التي تأتيها من مؤلفاتها ملكاً لزوجها؛ لأن وضعها القانوني -يقع مثلما أطلق عليه سير ويليام بلاكستون في تعليقه على قوانين إنجلترا- تحت "الأنثى المحمية"، وهو قانون يعني أن "الكيان أو الوجود القانوني في حد ذاته للمرأة يتعطل أو على الأقل يندرج ضمن كيان الزوج ويتحد معه؛ لأن الزوجة تفعل كل شيء تحت جناحه وحمايته وغطائه"!

أغطية لا تغطي إلا الحقيقة وهو ما لا أريده.

= من العمر 17 عاماً على محرقة تحرق فيها جنازة زوجها الذي كان قد توفي، لقد حاولت روب كانوار التي ألبست ثياب عرسها أن تتراجع وتنجو من الحرق بجانب زوجها وهمت بالتراجع ومحاولة المقاومة ولكن أخو زوجها دفعها دفعاً حسب طقوس «الساتي»، في ذلك الوقت، وقد قامت حملة لمكافحة هذه الطقوس، ولكن كان هناك من يستفيد، ففي ذلك المكان وضعت بنية أساسية لقيام حركة تجارية نشطة تعتمد تنظيم أماكن للإقامة للحجيج من معتنقي فكرة الساتي الذين يتدفقون على المكان بالآلاف، وغض الطرف عنه لمهادنة القاعدة الانتخابية المكونة من طائفة الراجبوت في السياق الأوسع المكون من الناخبين الهندوس. مصدر النسوية وما بعد النسوية، سارة جامبل صفحة: 120.

على أي حال ومن خلال هذه الرحلة اللولبية التي وجدت نفسي فيها والتي لونها أبجدية زرقاء، سوف نرى أن تلك التي رحلت بالرغم من الشوكة التي تحت حذائها، تثبت دائماً أنها أكثر فاعلية من الذين أعاقوها، إذ إن شفافيتها الشديدة منحتها ميزة إضافية، إنها أكثر رحيلاً وتغلغلاً في الحياة اليومية، هي ترحل وليس عندها الكثير من الوقت لتضيعه ـ ولا يهمني ما تقوله الكتب الصفراء ـ إذ إن المرأة تعرف الاحتياجات الأساسية لمجتمعها، وسوف نرى أن الاهتمام يعد صفة نسائية حميمة، سوف نرى، نعم، إنها تحمل طفلها وفي قلبها تحمل الوطن بالرغم من الاتساع.

رحلت بالرغم من الحزن، وبالرغم من الإقصاء الذي نجابه به، إلا أنني كامرأة قرأت وعرفت -مثلي مثل كل النساء اللاتي قرأن- أن التاريخ كان يرحل وهو ممزق الثياب مزقه رجال كانوا أوفياء لأنفسهم فقط!!

رحلنا ونعلم أن سياسة القوانين عند بعض الحكام سياسة غبية، تتخذ في الظلام فتكون عمياء لا ترى ما تحتها.

في الأزمنة البعيدة رأيت أمي دائماً جميلة:

العاصفة اللولبية لم ترتب لي خط سيري، يوماً هناك في الزمن البعيد وساعة هنا في الزمن القريب، في زمن يكتب ويكذب، رحلت في زمن توقف طويلاً في الركود وأوغلت في الجمود غير المحدود الذي لم يوقف أطراف أصابعي وكذلك عقلي عن الحفر

في الدائرة اللولبية، سرت طويلاً لا أنوي التوقف في زمن معين ولا في قارة بعينها ولكني في لحظة فائقة البعد توقفت، وجدتني في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، أتجول في بلاد الله الواسعة أبحث عن وجودي الذي أعلم يقينا أنه كان هناك، أبحث عن أمي حواء، أبحث عن أيامها الجميلة، أبحث عن تلك المرأة الجميلة التي أوصاني الله بها كثيراً ماذا كانت تفعل؟ وماذا كانوا يفعلون بها؟

زرت بلداناً كثيرة، بعضها أحببت البقاء بها قليلاً وبعضها لم أبق بها إلا لحظات أو ثوان، ودائماً تذهلني أمي الحبيبة في صبرها، إنها الأم التي أنجبت هذا الكائن الجميل وكفى.

أعود دائماً إلى لحظة البدء في المسار اللولبي الذي لا نستطيع أن نحدد لحظة البدء به في الحقيقة، ولكننا نستطيع أن نبدأ من أي نقطة نجد أن أقدامنا تستطيع الانطلاق منها، فشرق، امرأة بدأت رحلة الألف ميل، وغرب، امرأة واصلت المسير، والرحيل لا يتوقف في الشرق ولا في الغرب نرحل دائماً، وبقيت لحظة الإمساك بالثوب المهترئ، ثوب التاريخ العتيق، إنها لحظة عاصفة في مهب الريح لا تتيح لي الركون إلى الوقت، ولا الركون إلى ما يخفيه أبناء التاريخ الذين ولدوا يحملون جينات الإخفاء، أعلم ذلك، وأعلم أن هنا في أرض الخليج، في هضاب نجده وحجازه وبين أمواج بحره العربي وخليجه الهادي وتحت بحره الأحمر، محارات تملأها اللآلئ، هناك نساء برعن في الذكاء وفي الدهاء، هناك نساء يجب أن يأخذهن هذا الشيخ العجوز إلى قاعات التشريف،

إني أرحل أحملهن في قلبي ولكن دائي العضال إنني لا أستطيع الوفاء لهن بكامل عنفواني الموجود في أعمق أعماقي؛ لأن جيناتي مازالت تلمس وترى أن هناك فيروسات مازالت تريد العوم في بحر الخليج وبين صخوره ومرجانه الذي بعدُ مازالت حقن المناعة لم تأخذ مجراها فيه، وإلى أن تأتي تلك اللحظة التي لابد آتية على حصان من حروف أبجدية، فإني سوف أسيرُ أتوكأ على قلمي، بالرغم من الظروف التي تنهال على دربي.

وأعلم أن دربي لن يكون مفروشاً بالورود بالرغم من أني أحبها وأزرعها، سوف أسير على هذا الدرب أحفر بقلمي دروباً للأحبار الزرقاء مثل البحر.

وأقولها إن أرضنا أرض خصيبة وأثمرت وسوف تثمر، أقولها ولست أقول إني أعلم الغيب أو أدعيه ولكني أحب الأشجار وأرقب الأغصان التي ما زالت براعم تتحرك خلف اللحاء.

ولهذا وبعد أن نعود سوف نرى الحقول الخصيبة، دعونا نذهب إلى كلدان.

كلدان:

في الأرض الخصيبة في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وجدتُ أني كنت أمرأة خائفة، امرأة مرعوبة كنت، كنتُ امرأة متوجلة في كلدان، ترى من ماذا؟

من ماذا أيتها المرأة الكلدانية؟

من الغد!

كانت المرأة تخاف من يومها الذي قد يأتي وقد حمل لها المفاجآت، بعد مدة من الزواج، كان الرجل هناك عندما تشتد به ظروف الحياة لا يتعب نفسه في البحث عن ثروة صغيرة لتسديد ديونه، للبقال أو لبائع الحيوانات التي كان الرجل يحبها كثيراً.

يقارن هذا الزوج الكلداني أيهما أكثر فائدة له، الزوجة أم الثور؟

في هذه المرة معذرة -أيتها الزوجة- لقد وقع عليك الاختيار!!

أنت من سيباع لتسديد الديون.

أتعترضين؟!

لا، لا غير مسموح لك.

أتطلبين الطلاق؟!

لا، إنها كبيرة من الكبائر لدى رجال كلدان وبابل، أتطلبين الطلاق؟

ألا تتذكرين النهر؟!

إنه قريب لابد أن تغرقي به، لا بأس أيتها المرأة، لا بأس لن تعاني كثيراً، فقط قليلاً ثم تغرقين وتغرق الصرخات؛ فالصرخات لا تنقذ الغرقى.

ولكن تلك المرأة التعيسة الأخرى التي ليس بقربها نهر، سوف تعاني، هي التي سوف تعاني كثيراً، إذ يجب عليها أن تخلع ثوبها الأبيض حتى تلبس إزاره، إزار الرجل الذي رفضته، ذلك الإزار الذي لا يستر منها إلا نصفها الأسفل لتخرج لمن يريد أن يجرب عليها رجولته وقوته، لقد كانت طاهرة تلك الزوجة ولكنها القوانين الكلدانية التي ليس للمرأة خيار في تنفيذها.

إن تلك القوانين تلزم المرأة أن (تحج مرة واحدة إلى هيكل الزهرة "ميلتا") وهناك لابد أن تلتقي بأي رجل وتصحبه لمرة واحدة، أحبت ذلك الرجل أم لم تحبه، المهم أن تكون التقت برجل يلقي عليها المال، ويصحبها إلى خارج الهيكل لتنام معه، ثم يقول لها أسأل ـ الربة ميلتا أن تكون عنك راضية ـ أيضاً ليس لها أن ترفض أو تحتقر المال الذي رمي لها، قل أو كثر، المهم أن تعود إلى بيتها بعد تلك اللحظة المقدسة "لا باركهم الله فيها" وقد حظيت بالمباركة!!.

يقول: هيردوت المؤرخ اليوناني: "ينبغي لكل امرأة بابلية أن تجلس في هيكل الزهرة مرة في حياتها وأن تضاجع رجلاً غريباً. يقول ومنهن كثيرات يترفعن عن الاختلاط بسائر النساء فيأتين في عربات مقفلة، ويجلسن في الهيكل!![1] المهم أن تنام مع أجنبي، هذا الحج (غير المبرور) لا يحتاج من الجميلات وصاحبات المنازل العالية إلى وقت طويل لتحقيق مقتضيات الشريعة، ولكن الدميمات كن ينتظرن أياماً وشهوراً وأحياناً إلى سنوات، حتى تروق إحداهن

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الأول الفصل الخامس. صفحة: 229.

في عين أحد الأجانب فيقدم لها المال لتكون له مرة واحدة تعود بعدها إلى بيتها!!

يا له من عذاب لا ينتهي -أيتها المرأة- التي تبقين صامدة في شرائع الرجال، وسياستهم التي تبحث عن المصالح في حربهم غير المعلنة على الحقوق المرأة، إذ يظل صمودك موضع قمع مستمر، وفي كل نجاح تلمع به المرأة تبدأ الأغاني المحبطة، فهي سوف تدفع الثمن!!

كيف؟

سوف تتشتت الأسرة، وسوف تدفع الثمن في انهيار العلاقات الزوجية، والمعاناة، والإرهاق، وعدم إشباع عاطفة الأمومة، و و.. وتلك سياسة مجتمع ذكوري لتقليص الفرص المتاحة للمرأة، إنه حَظْر النجاح، والحظر متاح في يد الرجل بطريقة لا شك ذكية، ولكنها مكشوفة، ومثال يومي، نسمعه في الإذاعة وتقرؤه في الصحيفة؛ وذلك في صفحة من الصفحات لا نبحث عنها، ولكنها موجودة دائماً: إنها ثرثارة، وتلك حكاية ممجوجة!!

تقول عالمة اللغويات ديبورا كامرون في كتابها النقد النسوي: "إن المرأة يمكن إسكاتها عن طريق التحريم المباشر، باستخدام الحظر التقليدي للحديث النسائي في بعض المجتمعات الدينية والسياسية أو عن طريق الستهزاء بما تقول باعتباره ثرثرة فارغة أو حديثاً لا معنى له".

حمورابي[1]:

نعود إلى القديم في مملكة حمورابي، كان وضع المرأة أقل عذاباً، لأن ذلك الملك أميل قليلاً للعدل، لقد كان أكثر حناناً في شريعته من شرائع أخرى، فالزوجة الكلدانية التي كان ينكل بها ويتخلص من شرها الذي يظن أنها تجلبه للبيت بعدم ولادتها للأطفال، أصبحت زوجة بموجب تعاقد بين المرأة والرجل الذي ليس له الحق بأن يتزوج بزوجة أخرى ما لم تكن زوجته عاقراً أو مريضة بمرض لا يمكن شفاؤه، وأن يكون الرجل مسؤولاً عن ديون زوجته التي تستدينها، وكانت المرأة مساوية للذكر في الميراث، وكان لها الحق في حضانة أولادها إلا إذا أثبت الرجل أنها شريرة، في هذه الحالة يحق له أن ينزلها منزلة الإماء!!

قانون نسي أن يضع بنداً آخر يعاقب الرجل الشرير بالعبودية!!

في قانون حمورابي هذا كان للنساء الحق في أن يكن قاضيات وحاكمات وشاهداتٍ وكاتبات؛ ولهن الحق في أن ينتظمن في سلك الكهان، في بلاد البابليين ارتحت قليلاً، سبحتُ في ذكريات دجلة والفرات العظيم، في ذلك الزمن البعيد كان الكل مشغولاً بالكتابة السومرية وصناعة المسلات البابلية، ليتني أعود إليها..

(1) المصدر: المرأة بين الدين والمجتمع، زيدان عبدالباقي. صفحة: 28.

ليتني أطلت الوقوف هناك لأرى ماذا بقي منها؟؟

المرأة في مملكة العبرانيين:

في طريق رحلتي اللولبية الطويلة، آليت على نفسي إلا أن أطل على ابنة العم، تلك: التي تدين باليهودية، ترى ماذا تواجه هناك من تعامل؟

وهل تليق بها تلك المعاملة؟

ما هذا؟

لماذا هي منفية وحيدة في هذه الخيمة؟

إنها في دورتها الشهرية أو إنها "إنها تعاني الحيض"، إذن هذه المرأة محرم عليها أن تُجالِسَ أو تؤاكل أحداً، أو تلمس ثوباً أو وعاءً حتى لا ينجس!!

ها هو الماء وها هو الخبز أمامها فلتأكل ولتشرب منه، حتى تخرج من حيضها!!

تباً لكم يا رجال التلمود، ماذا فعلتم بتلك السجينة، التي ليس لها ذنب إلا كونها امرأة تتبع ملتكم التي قلتم: إن من ضمنها: أنه، لا يجوز للمرأة قراءة التوراة، حفاظاً على كرامة المصلين وعدم مسهم، بالخزي والعار؟!!

جاء في سفر اللاويين، الإصحاح الخامس عشر، الفقرة 19 الذي لا يخفى على أي مطلع أن الكثير مما جاء فيه هو من عند

غير الله جل جلاله، بل هو من تأليف رجال قساة كاذبين، يقول هذا السفر: "وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دماً في لحمها، فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من مسها يكون نجساً إلى المساء، وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجساً، وكل ما تجلس عليه يكون نجساً، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجساً إلى المساء، وكل من مس متاعاً تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجساً إلى المساء، وإن كان على الفراش أو على المتاع الذي هي جالسة عليه عندما يمسه يكون نجساً إلى المساء..

وكل فراش يضطجع عليه يكون نجساً..

وكل الأمتعة التي تجلس عليها تكون نجسة..

وإذا طهرت من سيلها تحسب لنفسها سبعة أيام ثم تطهر، وفي اليوم الثامن تأخذ لنفسها يمامتين أو فرخي حمام، وتأتي بهما إلى الكاهن إلى باب خيمة الاجتماع فيعمل الكاهن الواحد ذبيحة خطية، والآخر محرقة ويكفر عنها الكاهن أمام الرب من سيلها"[1].

وفي سفر اللاويين الإصحاح الثاني عشر: إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام، كما في أيام طمث علتها تكون نجسة..

(1) ديب علي حسن، المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات. صفحة: 97.

ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً في دم تطيرها، كل شيء مقدس لا تمس، وإلى المقدس لا تجي حتى تكمل أيام تطهيرها.

وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما في طمثها، ثم تقيم ستة وستين يوماً في دم تطهيرها.

المصدر الكتاب المقدس، سفر للاويين، الإصحاح في التلمود نقرأ: "الحمد لك يا رب يا مالك الدنيا يا من لم تخلقني أنثى".

"واحسرتاه لمن كانت ذريته إناثاً".

"أصلح النساء مشعوذات".

"النساء أرواحهن تافهة".

"النساء لسن حكيمات ولا يُعتمد عليهن".

"نزلت إلى العالم عشرة أنصبة من الثرثرة أخذت النساء منها تسعاً".

"لا توجد امرأة إلا للجمال، لا توجد امرأة إلا لإنجاب الأولاد".

كل من يمشي وراء مشورة امرأة، يسقط في جهنم"[1].

ومن أسفار العهد القديم: (سفر الجامعة بن داود) "وجهت قلبي لأتعلم وأبحث لعلي أجد الحكمة وحقيقة الأمور، وأعرف نفاق الجهلة وجنون الحمقى فوجدت أن المرأة أمرُ من الموت، فقلبها

(1) المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات صفحة: 99، ديب علي حسن.

مصيدة وأحبولة، ويداها أغلال، من كان صالحاً أمام الله ينجو منها، أما الخاطئ فإنها تقتنصه"!!

على كل حال، وبعد كل السخف الذي قرأناه في كتبهم الدينية التي كتبوها بأيديهم، وعن العار الذي يخافونه ولا يمس إلا الذين قرروه، هل أقول للمرأة اليهودية التي تعيش اليوم بشراك؟

فقد قرأنا في الصحف مؤخراً، أن البروفسور سبربر دانييل الحاخام الأرثوذكسي المتشدد ورئيس المجلس الاستشاري العام الذي يقدم المشورة لوزارة التربية والتعليم فيما يتعلق بالتعليم الديني والقومي في الكيان الذي أقامه اليهود في الأرض التي احتلت من فلسطين أعلن إنه: مسموح للنساء ممارسة عملية التسامي على درجة "عاليا"، أي الارتفاع إلى مستوى التوراة وحتى قراءتها!!

لقد سمحوا لها بالارتقاء إلى درجة عالية هكذا يقول الرجال، ولكن المحامية وعضو الكنيست سابقاً "شولاميت آلون" لها رأي يختلف، تقول هذه المحامية: "ليست النساء في إسرائيل سوى آلات تفقيس لصنع الجنود، إن المسؤولين الإسرائيليين ينتظرون من كل إسرائيلية أن تنجب أكبر عدد ممكن من الأطفال لكي يصبح بالإمكان إلحاقهم بالجيش فيم بعد"[1].

(1) ديب علي حسن، المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات. صفحة: 286.

ليس هذا فقط، بل إن علماء الاجتماع الإسرائيليين الذين هم مهتمتمون بقضية التوازن الديموغرافي كما يقولون:" إنه حتى يستمر تعاقب الأجيال وحتى يحافظ اليهود في العالم على العدد نفسه، فإنه يجب ألا يقل معدل خصوبة المرأة اليهودية عن (2) للمرأة في المرة الواحدة، وإلا فإن نسبة الفلسطينيين ستكون هي الأعلى والأكبر"[1].

إذن المرأة اختزلت إلى فقاسة تفقس الجنود في كل مرة، جنديين!

إنهم يخافون منها ويريدون أن تصنع الجنود لهم!!

ويريدون أن ترفه عن أولئك الجنود أيضاً، يقول هرتزل في يومياته: "سأستعمل فتياتنا الثريات كرواتب لمحاربينا الشجعان والفنانين الطموحين، والموظفين الموهوبين، يجب أن أتبع الزواج السياسي، يجب أن أقول لأصحاب المصارف الكبيرة الذين يتطلعون نحوي: أريدكم أن تزوجوا بناتكم لشباب نشطين يبشرون بمستقبل باهر، يلزمني هذا لبناء الدولة، إنه التسميد الذاتي للأمة"[2].

ولأنه تسميد للأمة فإن مشاعر هذه الأم تعد سماداً، أو لا اعتبار لها في نظرالحكومة، فهي محرومة من طفلها ليلا، فأي أم تحتضن طفلها أو تذهب إليه في غير وقت الزيارة سوف تطرد من عملها!!

(1) ديب علي حسن، المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات. صفحة: 287.

(2) ديب علي حسن. المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات.

فالأم المربية هي الكيبوتس التي تغرس فيهم التعاليم التلمودية والعدوانية ضد الآخرين وهم في هذه الحالة أبناء فلسطين.

ولأننا في أرض فلسطين، التي يركض لها الغرباء دائماً فلنقف قليلاً لنقرأ قصة رمزية ذات دلالة لعلها تكون واقعية، أو ربما اسطورة من أساطير الأولين الذين أرادوا أن يثبتوا دائماً - وإن أختلف الهدف - أن كيدهن عظيم، وهذا ما لا أشك فيه، فقد أثبته الله تعالى في كتابه الكريم حين أتت الـ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ إنها قصة دليلة.

دليلة:

ويقولون إنها امرأة فلسطينية من غزة، قالوا إنها أحبت الرجل العبراني الذي كان يستعرض قوته بين قومها، ليزرع الاحترام الذي كان يفتقده قومه وليجد زوجة فلسطينية ترفع مقام القبيلة التي كانت ترضخ للحكم الفلسطيني آن ذاك، وربما أرادت تلك المرأة أن تعلن الانتصار وحسب؟!

في الحقيقة إننا حين نقرأ هذه الحكاية لابد أن نتذكر أن فيها الكثير من رائحة الأساطير الإسرائيلية، ولكني أجد فيها الكثير من كينونة المرأة الذكية التي تستخدم ذكاءها في مواقع تريدها، سواء لها أو لمجتمعها الصالح أو الطالح: كان شمشون من قضاة العبرانيين، وكان رجلاً يتمتع بقوى خارقة كما يقال وكان يجاهد كفار الروم الذين يعبدون الأصنام، يغزوهم فيقتل منهم ويسبي ويغلب لوحده، فتآمر عليه القوم للانتقام منه فمن ذا يغلبه؟

إنها، لها، "المرأة"، دليلة، امرأة شهيرة بجمالها وفتنتها و"إن كيدهن عظيم" ذهبوا إليها، قالوا لها: نريده ولك ما شئت، مضت إليه، أغرقته بفتنتها وسحرها، وعندما تأكدت من ذلك، أي أنه وقع تحت سحرها الأخاذ، سألته عن سر قوته، قال لها: لو أوثقوني بسبعة حبال مبتلة لفقدت قوتي، إنه النصر آت يا دليلة، نام مثل طفل صغير ذلك الجبار فأوثقته لكنه أفاق من نومه فقطع الحبال!!

صرخت دليلة بدلال: أتهزأ مني يا حبيبي وأنا أريد أن أمزح معك وأجرب صدقك، أيها المخادع، أنت لا تحبني!!

لا، لا، لا يا دليلة بل أنت فاتنتي، يا ويلي ويا ويلي من الفتنة ويا ويلي من الحب.. في الليلة الأخرى وبعد أن غمرته بالسحر الفاتن سألته عن السر قال: إذا أوثقوا رقبتي بسلسلة من حديد فستزول قوتي وأصبح إنساناً عادياً، ونام وعندها أوثقته دليلة بسلسلة من حديد، وعندما أفاق من نومه جذب السلسلة المرتجاة فتقطعت دون عناء!! صرخت دليلة المدللة ما بالك أيها المخادع مرة أخرى تكذب علي؟؟

لن أصدقك مرة أخرى حتى لو أقسمت.

قال لها افعلي بي ما شئت إني رهن إشارتك، سقته الخمر حتى ثمل قالت له: الآن أنا، لا أحبك!!

تذلل لها شمشون حتى لا تتركه، قالت: السر، السر قله لي؟

قال: إن أمي قد جعلتني نذراً للمحراب، وقد دخلت بي قوة لا أدري سرها، ولا قوتها، ولكنها تكمن في شعري، فإن قصصته تفرقت قوتي، ونام شمشون في أحضان دليلة الفلسطينية التي سارعت إلى شد وثاقه ومن ثم دعت القوم الذين قصوا شعر شمشون الجبار، أفاق شمشون في اليوم التالي إنساناً عادياً لا حول له ولا قوة، عندئذ قام القوم بمكافأة دليلة الداهية، وقاموا أيضاً بجدع أنف شمشون وصموا أذنيه وعموا عينيه ووضعوه في معرض للناس، ومضت الأيام والشهور وهو معروض أمام الناس يعاني، عاد شعر شمشون مع الوقت ينبت وعادت قوته مع عودة الشعر وهو صامت ينتظر الانتقام، وحانت الساعة عند اجتماعهم جميعاً في عيدهم الذي يقيمونه في معبدهم، أمسك شمشون بعامود الهيكل وصرخ بأعلى صوته: آن الأوان أيها الكفار، وأطبق الهيكل عليهم جميعا، تلك هي المرأة دليلة وسياستها الرهيبة التي لجؤوا إليها فكبلت القوة التي عجزوا عن مقاومتها، إنه المكر!![1].

في بلاد الأساطير والفلاسفة:

كنت سريعة في رحيلي نحو بلاد أفلاطون وتلميذه أرسطو الذي تحدثنا عنه قبل قليل، توقفت هناك لعلي أجد في اليوتوبيا مكاناً أمارس فيه إنسانيتي، أليست بلاد اليونان هي بلاد الشعراء؟

(1) معجم أعلام النساء، زينب العاملي، صفحة: 311.

أليست بلاد الفلاسفة الذين ملؤوا الدنيا بفلسفة الحضارة التي قالوا إنها حضارة لا تغيب عنها شمس الحضارة؟

كنت أحب الشعر، ومازلت أحبه، لهذا قلت لنفسي: هيا يا سارة إنها فرصتك لتحضري مجلس الشاعر "هزيود" ذلك الشاعر النكد الذي أخرج لنا الأساطير العجيبة الغريبة عن زواج الأرض بالسماء، وعن ولد السماء كرونس الذي غضب على أبيه وأخذ مكانه وخوفا من أبنائه أخذ يبتلعهم واحداً واحداً، الأمر الذي دعى زوجته إلى أن تخفي ابنه زيوس الذي شب وخلع أباه، ثم أجبره على إخراج الأبناء الذي كان الوالد السماء، قد ابتلعهم فعادوا جبابرة يملؤون الأرض قوة واقتدارا!![1].

جلست غير بعيد عنه استندت على أسطوانة حجرية ووضعت يدي على حجري، معللة النفس بسماع أجمل الأشعار، فقد سمعت بأنه غير الأساطير التي أخرجها قد كتب شعراً جميلاً عن حياة الفلاحين؛ وذلك في "الأعمال والأيام" ولكني خفت على نفسي، لقد رأيت الرجل محملاً بالكراهية لي كامرأة، كان يظن حواء هي مصدر الشر والشقاء، لقد قال لسامعيه دون أن يرف له جفن: إن الرجال قد عاشوا مدة طويلة أحراراً بغير مرض ولا تعب حتى ظهرت "باندورا" -وهي حواء أو المرأة الأولى في الأساطير اليونانية- ويقول إن زيوس لما غضب على بروميثيوس حين سرق النار من السماء أمر الآلهة أن تخلق المرأة لتكون هدية للرجل، فأمر

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثالث، الكتاب الأول، صفحة: 25 .

إله الحدادة القبيح "هيفاستوس" أن يمزج من فوره التراب بالماء وأن يهب المزيج صوت الرجل وقوته وأن تعطيها "أفروديت" الجميلة شيئاً من جمالها وشيئاً من رشاقتها والقلق الذي يتلف الأعضاء، وعلمتها "أثينا" كيف تنسج القماش المتين وأعمال المنزل، وأمر الرسول هرمس أن يمنحها عقلاً كعقل الكلاب وأخلاقاً كلها ختل ودهاء، ووضع رسول الآلهة في جوفها صوتاً جذاباً، كلهم أطاعوا زيوس؛ ولهذا سميت في اللغة اليونانية بجامعة العطايا أو الحاصلة على جميع الهبات"!![1].

لقد كره هذا الشاعر مثله مثل بقية قومه الإثينيين أمنا حواء غفر الله لها "التي يقول عنها في كتابيه "الأعمال والأيام" و"أنساب الآلهة": إنها جلبت معها الشرور وجلبت المرض وآفات الفقر والشقاء.

هذا الهزيود يصر على أن ظهور "باندورا" هو سبب انحطاط الجنس البشري، وهو العقاب الأزلي للرجل بالرغم من أنها لسوء الطالع كما يقول ضرورة للإنجاب!

يظل هزيود يؤمن بالأساطير التي يكتبها ويقرؤها مجتمعه كأنها شيء مقدس وليست أساطير هم كتبوها ملاحم ما زال الناس يقرؤونها كأنها الحلم الذي لا يفيق إلا والدهشة تحلق به في وديان اللامعقول، يظل هزيود يؤمن بأن المرأة أصل الشرور وأمها، تقول

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثالث. صفحة: 188.

الأسطورة التي يؤمن بها ومعاصروه: إن زيوس يقدم باندورا إلى إميثيوس الذي حذره بروميثيوس من قبول هدايا الآلهة، ولكنه بالرغم من هذا التحذير يشعر بأنه لا حرج عليه من أن يخضع لجمال هذه المرأة، وكان بروميثيوس قد ترك مع إميثيوس صندوقاً خفياً عجيباً وأوصاه ألا يفتحه بأي حال من الأحوال، وكانت معه بندورا التي غلب عليها حب الاستطلاع ففتحت الصندوق، فما الذي حدث؟

لقد طارت من الصندوق عشرة الآف شر، أخذت تنغص على الناس حياتهم، هذا الشاعر لم يخجل مني كأمرأة أشاركه الحياة وهو ينصح الرجل الفلاح الذي بقيَ يستمع إليه بأن يحصل أولاً على المنزل ثم على المرأة، التي هي ضرورة أيضاً لأعمال المنزل، ثم على الثور!

لصدمتي في هزيود لم أبق طويلاً كي أستمع لأشعار هذا الذي قال إن أمي صنعها إله الحدادة القبيح!

سبحان الله ما بال هؤلاء القبحاء يكرهون المرأة؟

هل هي سياسة الخوف؟

هذا ما سوف نظل نفكر به على مر العصور، فالقبيحون والمرضى النفسيون هم الذين يعانون من وجود امرأة إلى جانبهم، أليس كذلك؟! لعلني لم أبتعد من خلال هذه العاصفة اللولبية عن عين الحقيقة إذ إني أريدها؟

سوف أحكي حكاية صغيرة، تذكرتها الآن، عن القبح بعيداً عن آلهتهم التي إبتدعوها، لقد عاش في العصر البعيد أي في حوالي العام 550 ق ب شاعر قبيح هو هبوناكس وهو كما يورد ول ديورانت في قصة الحضارة: من الشعراء العظيمي القدر والعظيمي القبح قصائد قبيحة في موضوعها، غامضة في ألفاظها، لاذعة في فكاهتها، دقيقة في وزنها الشعري، جعلت بلاد اليونان كلها تتحدث عنه، وإفسوس كلها تحقد عليه، ذلك الرجل كان قصير القامة، نحيل الجسم، أعرج مشوها، غاية في القبح، رسم له المثالان بوبالوس وأثيس رسما مضحكاً فهاجمهما في شعره هجاء مقذعا بلغ من القذارة حدا جعله أحد وأقسى من حجارتهم وأبقى على مدى الدهر، هذا الشاعر القبيح نسمعه يقول في بعض ما بقي من إحدى قصائده: "إن المرأة تسبب السعادة للرجل في يومين/ أحدهما يوم يتزوجها، والثاني يوم يدفنها"[1] لن أبقى مع هزيود وكتابه الذي ملأه بالأساطير التي ألفها، ولكني رحت أقلب طويلاً في"أوديسة" "هوميروس" الذي يقولون إنه كان أقل عداء من هزيود للمرأة وتوقفت عند بطلتين من أبطال "الأوديسة"، إنهما "هيلين" و"كلوتو منسترا" هاتان البطلتان قال عنهما هوميروس: إنهما لطختا جنسهما!!

بل أكد: أن هاتين المرأتين لطختا كل امرأة شريفة إلى أبد الدهر!

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثالث، الكتاب الأول، صفحة: 266.

سلام عليك يا حواء كم ظلموا جنسك، وكم أسهبوا في الظلم، فهذا الهوميروس يحمل المرأة ما ليس لها من أوزار فلو أخطأ رجل، أي رجل فسيكون الخطأ فرديا يتحمله صاحبه أما أن يكون الخطأ من امرأة فالويل لكل النساء، ويا نساء العالم لا عزاء إلا بالعمل بالحد من ظهور هميروسات آخرين يظلمون ولا يتقون، ولكن هل هذا متاح؟

السؤال أوجهه للمرأة ذاتها؟

أفلاطون:

أماه، هل أرحلُ عن تلك البلاد المليئة بالجبال وبالفلاسفة الذين يشبهون الجبال؟

لا، لماذا؟

تطلبين مني الدخول في جمهورية أفلاطون؟

سمعا وطاعة أيتها الغالية، ليس لي إلا أن أرى وأسمع ماذا فعل أفلاطون في اليوتوبيا المتخيلة؟

هل كان ديموقراطيا مع الكل؟

هل قبل المرأة بخصوصيتها الأنثوية؟ لنرَ.

آه هاهو اليوتوبي أفلاطون يكرمها بإدخالها إلى طبقة الحراس، حسنا ذلك طيب ولكنه، ويا للأسف، يكره الأنوثة فيها، يحتقر تلك الأنوثة، فهو يطلب منها في محاوراته وقوانينه بدون أن

يخجل أو أن يرف له جفن أن تتخلى عن كل ما يمت للأنوثة بصلة، إذ يقول: "إن عليها أن تسير أثناء التمرينات الرياضية والعسكرية في الشارع عارية تماما مثلما يفعل الرجل، وحذار أيها الشبان من الحراس الرجال، فهي كثيرة اللجاجة، غير متعاونة تعتني بنفسها كثيرا، كثيرة التباهي، مجدفة، سهلة الانقياد، هشة أمام المرض، هشة أمام الحب، كما أنها عرضة للإفراط في الحزن!! ويعوزها معرفة ما يصلح لها!! وهي أدنى في العقل"![1].

هل بقي المزيد يا أفلاطون؟

نعم هناك المزيد، يقول: "إن النساء لا يصلحن كنماذج للشباب أكثر من المجانين والحرفيين والعبيد"![2].

مساكين أولئك الحرفيون والعبيد ساواهم بي أنا ابنتك يا حواء، لقد وضعني في حضيض الإنسانية، لقد كان هذا الرجل يحزنه أن أمه أنثى، إنه يعتقد أن من يعمل بيده يجب أن يسرح عقله!!

هكذا كان يفكر الرجال الذين يقودون الفكر!!

ويظل العمال الحرفيون في نظره بدرجة أقل تماما، مثل النساء اللاتي يعملن بأيديهن فإذن ليس لديهم عقل![3].

(1) سوزان مولر أوكين النساء في الفكر السياسي الغربي صفحة: 34.
(2) سوزان مولر أوكين النساء في الفكر الغربي صفحة: 35.
(3) سوزان مولر أوكين النساء في الفكر الغربي صفحة: 38.

إن أفلاطون يريد أن يلغي وجود المرأة لأنها بالنسبة له شيء بغيض، فهو يقول: إن الخلق الأصلي لم يتألف إلا من الرجال، أولئك الذين استطاعوا قهر شهواتهم أصبحوافضلاء على الأرض، وسوف يسمح لهم بالعودة إلى سعادة النجوم التي أتوا منها، أما بالنسبة لأولئك الذين فشلوا على الأرض، والجبناء والأشرار فسوف يعاقبون بأن يولدوا من جديد نساء[1].

هؤلاء النساء يستفاد منهن في كل الظروف ففي قوانينه لا يستبعدهن من الخدمة إذا كان فيه رفعة لدولته ففي نظام الخدمة العسكرية لا يستبعد النساء لو ظهرت أية علامة للاستفادة منهن في الخدمة العسكرية، يقول في هذه الحالة: فلتكن فترة خدمتها بعد أن تكون قد انتهت من رعاية أطفالها وحتى سن الخمسين في تلك الوظائف التي ترى أنها ممكنة ومناسبة لها[2].

يقول أفلاطون إن ذلك سوف يكسب المجتمع خمس سنوات من الخدمة ولن يلزمه بإنتاج نساء الأمزونات"[3].

---

(1) المصدر ذاته صفحة: 65.

(2) نساء الأمزونات هن نساء من المقاتلات كن يعشن في آسيا الصغرى وقبل ذلك كن يعشن في ليبيا القديمة وليس لهن أثداء فقد أزيلت منذ الصغر عن طريق الكي، وذلك حتى يستطعن الحرب و إطلاق القوس في حرية أكثر. الحمائم السود من الظلمات إلى النور ـ النساء الليبيات المحاربات وفي كتاب النساء في الفكر السياسي الغربي لسوزان موللر أوكين صفحة: 65.

(3) سوزان مولر النساء في الفكر السياسي الغربي صفحة: 38.

قوانين واستشهادات!!

لم يكن أولئك اليونانيون القدماء وحدهم من جهل المرأة وجهل عليها، فهاهو الدستور البرتغالي ينص على "وإذا كان جميع الأشخاص متساوين أمام القانون، فالنساء لا يمكنهن ذلك"

والقانون الفرنسي ماذا يقول؟

روجيه جارودي[1]:

يخرج لنا روجيه جارودي في كتابه الجميل: في سبيل ارتقاء المرأة، بنص قانون تشريعي فرنسي ينص على أن: "الأولاد والمجانين والقصر والنساء ليسوا مواطنين"!

وها هو جان جاك روسو معهم يستشهد باستحسان ومحبة بشعار "بيركليس" الذي يقول فيه: إن المرأة الصالحة ينبغي لها أن لا تتعلم أبداً!!

إذن بيركليسلن يخجل من زمنه الماضي كثيرا فالقوانين الذكورية تمارس حياتها في كل الأزمان!!

جان جاك روسو:

جان جاك روسي الفيلسوف الذي عاش في عصرنا الحاضر وصدعنا بكتاباته عن الأخلاق وعن النظرية الاجتماعية يعتقد

(1) في سبيل ارتقاء المرأة، روجيه جارودي.

obeikandl.com

باعتقاد اليونانيين فإن المرأة مزودة فقط بمواهب للجزئيات والأمور الثانوية!!

"فهي ناقصة أو عاجزة من الناحية التعليمية، وتماما هي عاجزة عن التفكير المجرد"[1].

يؤمن "جان جاك روسو" كما آمن اليونانيون من قبل بأن: "باندورا" و"كلوتومنستر" و"ليليت" وبقية النساء اللاتي اتهمن بالسحر هن المصدر الأول للشرور!

يقول روسو بكامل وعيه، اللاواعي بالإنسان كما خلقه الله "أن المرأة هي التي توقظ ذلك الجنس الذي يجلب له مشاعر الخوف والإثم معا" وهي. يعني المرأة. بقدرتها على إيقاظه، تصبح خطرا على ثقته بنفسه وعلى استقلاله وكفايته الذاتية!

يقول "جان جاك روسو" في كتابه "إميل الأعمال الكاملة"، بكامل وعيه اللاواعي أيضا: "ولأن لها قوة لا حد لها كان عقابها الإلهي هو أن تلد الأطفال بالوجع"[2].

إذن المرأة في نظره قوة لا حد لها، ولا يستطيع أن يقف في وجهها، ولا أن يلغي وجودها، ولهذا إذن كان لا بد لها من قوة معادلة تعاقبها، والعقاب هو أن تلد بالوجع"أستغفر الله، أستغفر الله الرحيم الكريم "عقاب الله في نظره هي أن تلد الأطفال

(1) النساء في الفكر السياسي الغربي، سوزان مولر ترجمة إمام عبد الفتاح إمام صفحة: 122.

(2) إميل في الأعمال الكاملة صفحة: 709.

بالوجع، تلك هي مبادئ الفيلسوف الذي انكفأ على عقبيه مثله مثل معلميه الأول، إنه لا يرى أن المرأة مكرمة من ربها بحمل الأمانة؟ أنهاتحمل الحياة بين جنبيها، تحمل الطفل الذي كانه جاك جان روسو وكل رجل من أبناء آدم وحواء التي ظن جاك أن الإله عاقبها بالوجع في الولادة!! " لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ليت هذا الجاك تمعن قليلا في ما خلقه الله وأراده.

لقد كتب هذا الفيلسوف كتاباً قال عنه إنه أفضل وأهم مؤلفاته، عرض فيه بالتفصيل كيفية التربية المثالية للنساء، أظهر فيه أبوية صلفة لا تترك للنساء حرية من التفكير السوي فهو "خطط"، لأن يمكّن إيميل من أن يكون رجلا طبيعيا، في عالم فاسد، وخطط لزوجته المقترحة في المؤلف لأن تكون امرأة تحترم وضعها فهو ينصحها: " الأمر الجوهري أن تكوني كما أرادت لك الطبيعة أن تكوني، إن المرأة تميل دائما أكثر مما ينبغي أن تكون كما يريد لها الرجال أن تكون"[1]!

يقول أيضا: إن خصائص مثل النفاق وتحمل الظلم هي خصال فطرية في المرأة بسبب وضعها الثانوي في الحياة "المرأة مخلوقة لتخضع للرجل، بل ولتتحمل ظلمه وتصبر على جوره، فإنه من المفيد لها أن يكون لها أهلية فطرية للأنس واللطف لكي تتحمل هذه المعاملة"[2]!

(1) النساء في الفكر السياسي، سوزان موللر أوكين صفحة: 151.
(2) النساء في الفكر الغربي، سوزان موللر: 39 إيميل صفحة: 734.

في هذا المؤلف يزعم روسو أيضاً أنه يطور في "إيميل" تلك الخصائص الفطرية التي يعيق المجتمع والحضارة عادة نموها عن طريق ما يحتويه من نساء.!!

هو يقول إن المرأة لا يمكنها الاستدلال ولكن ينبغي عليها أن توفر للرجل المساعدة للاكتشاف: "العقل الموجود عند المرأة هو العقل العملي، الذي يمكنهن بسهولة من اكتشاف كيف يصلن إلى نتيجة معينة، لكنه لا يمكنهن من الوصول إلى النتائج نفسها"[1] ويؤكد أن "البحث عن الحقائق النظرية والمجردة من المبادئ والبدهيات في العلم، كل شيء ينطوي على تعميم للأفكار ليس داخل نطاق المرأة، فدراستها ينبغي أن تهتم بالأمور العملية، فمهمتهن تطبيق المبادئ التي يكتشفها الرجل، ويترك لهن أن يعملن الملاحظات التي تؤدي بالرجل إلى اكتشاف هذه المبادئ"[2].

سوف يظل المبدأ أن المرأة نصف المجتمع وحضن السياسة التي لا تضمحل بفكر يتغير، في صفحات أخرى، نجد روسو يقول:" أنا أكرر أن المرأة إذا سمحت ظروفها، سوف تُبدي نماذج عالية من عظمة الروح، وحب الفضيلة، وبأعداد غفيرة أكثر مما فعل الرجال، إذا لم يذهب ظلمنا بحريتهن بكل الفرص التي يمكن أن يظهرن فيها في أعين العالم"[3].

(1) سوزان مولر أوكين صفحة: 154.
(2) إيميل صفحة: 736.
(3) سوزان موللر أوكين، النساء في الفكر السياسي الغربي، صفحة: 153.

هل هذا روسو الذي قال الفقرة السابق إيرادها؟

لا أدري ما هذا التفكير؟ وهل ذاك عن قناعة؟ وهل للزمن دور في ذلك؟! إذ إنه يعود ليقول: "إن فن التفكير غريب عن المرأة، لكن ينبغي عليهن" فحسب "أن يتصفحن ظاهر الاستدلال"[1].

إذن هو مفهوم، التابع، يريده روسو، وقبله أفلاطون، وقبله أرسطو وقبله وبعده رجال من جنوب الأرض وغربها، إنهم يفرضون على المرأة نوعاً خاصاً من التربية المخصوصة والصمت والإحساس بالامتنان للثقافة الاستراتيجية التي ابتدعوها كي تظل المرأة في حلقة لا تتفرج.

أبي الثناء[2]:

هل أعود إلى أهلي لأستريح قليلاً؟

نعم، الشوق يأخذني إليهم، فلابد أن أعود إلى جزيرة العرب، التي كانت ذات يوم موغلة في الظلم والشيفونية وأدت طفلة ليس لها ذنب إلا أنها طفلة وليست صبياً!!، لقد أسهم أجدادنا العرب في بخسها واستلاب حقوقها مثل أولئك الآخرين، أعني مثل الممالك التي سادت ذات يوم، وذاك الذي عرفناه قبل هذه السطور، قال قائل منهم، أي: العرب، وأسمه "خير الدين" قال خير الدين نعمان ابن أبي الثناء في كتابه الرهيب (الإصابة في منع النساء من

(1) سوزان موللر النساء في الفكر السياسي الغربي صفحة: 154.
(2) المرأة واللغة صفحة: 158 عبد الله الغذامي.

الكتابة): "أما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله، إذ لا أرى شيئا أضر منه بهن، فإنهن لما كن مجبولات على الغدر كان حصولهن على هذه الملكة من أعظم وسائل الشر والفساد، وأما الكتابة فأول ما تقدر المرأة على تأليف الكلام، فإنه يكون رسالة إلى زيد ورقعة إلى عمرو وبيتا من الشعر إلى عزب وشيئا آخر إلى رجل آخر؛ فمثل النساء والكتب والكتابة كمثل شرير سفيه تهدي إليه سيفا أو سكير تعطيه زجاجة خمر، فاللبيب من الرجال من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى، فهو أصلح لها وأنفع"[1]!

ذلك الرجل كان اسمه خير الدين!

لا خير في هذا الرجل للمرأة، ولا للكتابة.

استراحة على حافة الحبر:

لا تبكي يا أمي، لا تبكي أيتها القارئة الموغلة في القراءة، لا تبكي فما زال هناك المزيد من الذين غرسوا الثقافة الأحادية هنا، وهناك الكثير الكثير ولكني لن أسترسل، ذلك لأني لم آتِ كي أبحث عن الأخشاب المسوسة أو الأشواك التي زرعت في طريقي، بل إني أتيت أبحث عن ثلج أبيض يأتي ذات يوم فيلوِّن الأرض بلون البياض، إني أراه يتكاثف في داخلي فيكون بحيراته الزرقاء، ثم يتلوّن بلون دمي الذي يخافونه.

وإن يسفحوه،

(1) عبد الله الغذامي المرأة واللغة. صفحة: 111.

سوف يمر حروفاً لولبية،

إلى كهوفهم التي

يخشون أن يدخلها أحد،

ها إني أراه

يحلق، لونه الحرف

وقامته أبجدية

ها إني أراه:

ريشته ثرية

طائرا يطير في سماء الثقافة،

رائحته تحفر في الوجدان

مسافة وراء المسافة،

صديق أزرق رقيق،

يبعث البركان من عقاله،

في جداله: تتساقط

النسور والغربان

وإن همُ هموا باعتقاله

أغرقهم الحبر بالطوفان.

obeikandl.com